في الهواء الطلق (١)

التعصب

كانت ثلاثة أيام لطيفة قضيناها على شاطئ البحر ... الجو معتدل يميل إلى البرودة، والسماء صافية، والشمس ساطعة، والبحر هادئ، وكل شيء حولنا جميل، ونزلت أنا وصاحبي في فندق على البحر في رمل الإسكندرية، ننعم فيه بالهدوء وجمال المنظر ... والأناقة تبدو في كل ما حولنا.

ها نحن في الصباح في حديقة الفندق بعد أن تناولنا فطورنا نقرأ الجرائد، وبعد أن فرغ صاحبي من قراءتها، وضعها ... وإذا هو يقول: «شر ما نبلى به اليوم التعصب»، ولا أدري ماذا بعثه على هذا القول مما قرأ ... فقلت: إن التعصب كلمة مصطنعة أطلقها الإفرنج علينا ظلمًا وعدوانًا؛ ليصرفونا عن التمسك بديننا والاحتفاظ بقوميتنا ... فإذا قاومنا أعمال المبشرين قالوا تعصب، وما هو إلا حماية ديننا من الاعتداء عليه، وإذا وقفنا في وجه الاستعمار، وثرنا من أجل استغلالنا واستعبادنا؛ قالوا تعصب ... وما هو إلا المحافظة على كياننا والرغبة في التمتع بحرياتنا، وهم يتمسكون في بلادهم بأشد مما نتمسك به في المحافظة على دينهم وقوميتهم، ولا يخطر ببالهم أن يسموا هذا تعصبًا، وإذا صح إطلاق القول، فهم أولى به منا ... إذ يدعوهم تعصبهم لدينهم إلى نشره بيننا وحماية التبشير بالقوة، ويدعوهم تعصبهم لقوميتهم إلى فرض الاستعمار علينا بالسلاح ... فهل نحن المتعصبون؟!

هو: قد يكون هذا القول صحيحًا، ولكن ليس هذا الذي أريد، إنما أريد التعصب الداخلي فيما بيننا، ويظهر ذلك في الجمعيات الدينية، والأحزاب السياسية، والهيئات الاجتماعية، فكل جمعية دينية ترى أنها هي التي على الحق، ومن عداها فعلى الباطل ... وتخاصم من عداها، وقد ترميه بالكفر والإلحاد، وقد تنفذ آراءها بقوة السلاح، وكل حزب سياسي يتعصب لحزبه، ويرى كل ما يصدر عنه حقًّا، ولا يرى أي حق فيما يصدر عن الأحزاب الأخرى؛ ويتمثل ذلك في قول قائلهم: «الحماية على يدنا خير من الاستقلال على يد غيرنا»، وكل هيئة اجتماعية ترى أنها الوحيدة في فعل الخير وفي الإصلاح ... أما ما عداها من الهيئات فأداة فساد، هذا هو التعصب الذي أعنيه وأكرهه وأمقته، وأدعي أنه كارثة من أكبر كوارثنا.

أنا: ولكن علمني أستاذي سقراط بأننا قبل أن ندخل في الحوار نحدد الموضوع، فما الذي تعني بالتعصب؟

هو: إنما أعني به الغيرة العمياء، وأعني بالعمياء أنها غيرة لا تصدر عن تفكير هادئ، ولا منطق سليم ... وإنما تصدر عن تقليد من غير نظر، أو عقيدة من غير تفكير، أو تلقين من غير بحث، وهذا مرض نفسي له أعراض ككل الأمراض، وأهم هذه الأعراض ثلاثة تظهر مجتمعة لا متفرقة:

أولها: ضيق النظر، فليس يرى المتعصب إلا ما اعتقده أو لقنه أو ألقي في روعه ... أما ما عداه فهو يكرهه من غير تفكير، ويمقته من غير أن يصغي إلى حججه، قد وضع أمام عينيه ما اعتقد، وأبى أن يرى أي شيء عداه، فمهما قال مخالفه فهو باطل قبل أن يدلي بحججه، ومهما قال مؤيده فهو حق ولو لم يأتِ ببرهان، قد عكس الوضع الطبيعي، فوضع العربة أمام الحصان، فهو يرى الرأي أولًا، ثم يتلمس البراهين لتأييده ثانيًا؛ وهو يحب كل شيء يقوي رأيه، ويكره من صميم قلبه كل شيء يعاكسه، وقد يغلو في ذلك حتى يصبح أشبه ما يكون بالمجنون.

وثاني الأعراض: حبه القوي لغلبة فكرته أو عقيدته وهزيمة الآراء المعارضة واندحارها، ليس عنده أي شيء من التسامح فيما يخالفه من آراء؛ حتى كأن مخالفه قد قتل قتيلًا له، فهو يريد الأخذ بالثأر منه، فهو متحمس هائج يريد أن يقضي على من يخالفه بكل ما لديه من قوة، ويكون هذا في المعتقدات الدينية وفي الأحزاب السياسية وفي النظريات الاجتماعية على السواء؛ فالمتعصب الديني كاره لمن خالفه، متحمس للقضاء عليه أو على فكرته، والمتعصب الحزبي لا يرى خيرًا إلا ما أتى من حزبه، وأما ما أتى على يد

الأحزاب الأخرى فشر محض يجب أن يقاوم بكل ما استطاع من قوة ... ولو بإفساد النظام وإشاعة القلق والاضطراب، وهكذا الشأن في النظريات السياسية، كالنزاع بين الديموقراطية والاشتراكية والشيوعية والنازية وأمثالها، يتحمس معتنقوها حتى يصل التحمس إلى سفك الدماء.

وثالث الأعراض: أن هذه الغيرة العمياء والحماسة الخرقاء تجعل صاحبها لا يقدر ما ينزل بالآخرين من آلام ولا ما يحل بهم من كوارث، فلا يرى إلا تحقيق فكرته مهما ألم الناس، تطغى رغبته في تحقيق الفكرة على كل ما لديه من عواطف، فهو قاس جبار يتشفى بعذاب الناس وإيلامهم في سبيل تحقيق فكرته، ويظهر ذلك بأجلى مظهر من الناحية الدينية في محاكم التفتيش، ومن الناحية السياسية والاجتماعية في الثورة الفرنسية، ففي كل ذلك صار التعصب غيرة يلهبها الحقد.

وتركنا مقاعدنا، وسرنا على شاطئ البحر نتمم حديثنا ...

أنا: ألست ترى أن هذا هو الجانب الأسود من التعصب وأن له جانبًا آخر جميلًا؟ فكثير من ضروب الإصلاح أتت على أيدي متعصبين، اعتنقوا فكرة وتعصبوا لها، ورأوا الخير فيها، وتحمسوا لها، وتحملوا العذاب في تحقيقها، وكثر أشياعهم وأتباعهم حتى عم الإصلاح، فالحكم على التعصب — كما يؤخذ من كلامك — بأنه شر محض، مبالغ فيه، والعقيدة ما لم تصهرها حرارة الإيمان لا قيمة لها، والفكرة ما لم يتحمس لها صاحبها، وما لم تأخذه الحمية لها، وما لم يدعُ إليها في غيرة واحتمال آلام، لا تكون ذات قيمة ... وهذا ضرب من التعصب الذي تبغضه.

هو: قد يكون في هذا شيء من الحق، ولم أَدَّعِ أن التعصب شر محض، فليس في الدنيا شر محض، وكل ما في الحياة — ماديًّا كان أو معنويًّا — مزيج من الخير والشر، ونتائجه كذلك ... وإنما نكره الشيء ونحكم عليه بالشر؛ لأن مضاره أكثر من منافعه والعكس، والتعصب شر ما منيت به الإنسانية، والمتعصب لا يرى خيرًا إلا ما لقنه من غير تفكير ولا برهان، وهو بذلك ينقلب وحشًا ضاريًا، ويصبح وليس أمامه إلا تحقيق نفسه، وينقلب أنانيًّا بغيضًا يتحدى الأفكار المخالفة في عنف، ويريد أن يفرض على الناس رأيه بالقوة لا بالإقناع، وأي ضرر بعد هذا؟! إن المتعصب أبعد ما يكون عن معنى الإنسانية، إنما المصلح الحقيقي من اعتنق الفكرة بعد بحث وتمحيص، وتحمس لها في عقل واعتدال، وحاول بث دعوته عن طريق الإقناع والبرهان لا عن طريق القهر والغلبة.

ويدلنا التاريخ على أن التعصب كثيرًا ما يسير سيرًا وبائيًّا كالطاعون ... فينتشر المرض في سرعة عجيبة، وخاصة في الجماعات التي ليس لها رأي عام متنور، ويزيد في انتشار هذا الوباء أن يكون للجمعية الدينية أو الحزب السياسي شعائر ومظاهر تتفق وعقلية العامة في الشعوب الساذجة، وعندما تنتشر هذه الفكرة الناشئة عن التعصب، يفقد جمهور المعتنقين لها الشعور بالمسئولية ... فيأتون من الأعمال ما لا يأتيه الفرد العادي منفردًا في حالة وعيه، وقد ينضم إلى الفكرة أفراد مهذبون على درجة ما من الرقي العقلي بسبب قوة التيار، وما في الفكرة أحيانًا من بريق ولمعان، وإذ ذاك يكون الخطر ويصبح الناس في حالة هستيرية كالتي كانت في محاكم التفتيش وفي الحروب الصليبية، وأكرر القول بأن هذه هي الأعراض في الجمعيات الدينية والأحزاب السياسية على السواء.

أنا: هل تضع أمام عينك وأنت تتكلم هذه الكلام طوائفَ وأحزابًا خاصة تستلهم منها هذه الآراء؟

هو: قد يكون ذلك، وقد يكون مبعث هذا ما قرأته في جرائد اليوم ... ولكني قد ارتفعت في تفكيري عن الجزئيات وحلقت في سماء الكليات.

أنا: هذه هي عادتك دائمًا، تفلسف كل شيء حتى تجعل من الحبة قبة، ومن القطرة مطرًا، ولكن أترى أن هذا الأمر مقصور على الشرقيين؟!

هو: كلا ... إني أرى أن دور التعصب هذا دور طبيعي، تمر فيه كل جماعة كما يمر كل إنسان في دور الطفولة، فإذا اتسع أفقه، وزاد علمه، وتأصلت حريته، لم يعد التعصب يجد مجالًا لنموه، ولا ميدانًا يسبح فيه.

أنا: ما دمت تتفلسف فلِأَتفلسف ... ويخيل إلي أن فلسفتك كانت فلسفة نفسية أو سيكولوجية، فلأتفلسف أنا فلسفة اجتماعية، فأقول إن هذا التعصب إنما يسير كما ذكرت سير الوباء في بيئة اجتماعية صالحة له كأن يشيع فيها الفقر والبؤس وسوء الحال وكثرة الضغط وقوة الاستبداد، فتكون هذه الأشياء كلها مرعى خصيبًا تسود فيها الفكرة المتعصبة ويدخل الناس فيها أفواجًا، وقد يكون كثير ممن يدخلونها لا يؤمنون بها ... ولكن لما رأوها تدعو إلى القلق والاضطراب، أحبوا القلق والاضطراب؛ لأنهم يمنون أنفسهم بإصلاح الحال بعد زوال الاضطراب ... فيشتركون مع أصحاب الفكرة في النتيجة وإن لم يشتركوا في الأسباب والعقيدة، وإذا كان تشخيصك للمرض نفسيًّا، وعلاجك له علاجًا نفسيًّا، فتشخيصي له تشخيص اجتماعي، وعلاجي له علاج

اجتماعي، فلنتحر أسباب القلق والاضطراب ونزلها، يترتب على ذلك حتمًا حصر المرض في بقعة معينة وعدم سيره سير الوباء.

إن كان منهج فلسفتك النفسية يرسم العلاج بنشر العلم الصحيح بين الأفراد، وتأسيس منهج تربيتهم على البحث والتفكير والشك والتجريب وعدم سرعة التصديق، فليكن منهج فلسفتي الاجتماعية نشر العدالة الاجتماعية، وتأمين الناس على مصالحهم وحرياتهم، وتحقيق العدل بينهم ... فإذ ذاك يتعاون الإصلاح النفسي الذي تذكره، والإصلاح الاجتماعي الذي أنشده، على قطع دابر التعصب، وإحلال التسامح اللطيف محل التعصب السخيف.

وشعرت بأن هناك عدم انسجام بين هذا الجو وهذا الحديث، فالجو فرح مرح ونحن جادون، والبحر يضحك ونحن عابسون، والنسيم يداعبنا ونحن لا نجاوبه، وانتهزت فرصة رجوعنا إلى الفندق فحولت الحديث إلى غزل في الجو وصفائه، وابتهاج بالمنظر وجماله.